

المطلب الأول

أثر الوقف في تحسين مستوى المعيشة في المجتمعات الإسلامية

كثيراً ما تعرض المشكلات والعقبات للناس في حياتهم فتتغير أحوالهم وتضطرب أمورهم فيحتاجون إلى من يساعدهم - بعد الله عز وجل - فقد يصيب المرض الإنسان فيقعده عن عمله، وقد تحل الكوارث الطبيعية والأزمات المختلفة التي تؤثر على المستوى المعيشي لأفراد المجتمع ومن عظمة الإسلام أنه وضع الحلول الجذرية لتلك المشكلات من خلال الزكاة والصدقات والأوقاف التي أسهمت في حل معظم مشكلات المجتمع الإسلامي على مر التاريخ إبان ازدهار الوقف والقيام على تنميته وتفعيله في المجتمعات الإسلامية، "وإن من الغايات التي لأجلها شرع الإسلام الوقف الغاية الدينية والغاية الاجتماعية؛ فالغاية الدينية تمنح المسلم مزيداً من الفرص التي يمكنه من خلالها التقرب إلى الله تعالى قال ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له) (١) .

أما الغاية الاجتماعية - الإنسانية - للوقف: فتهدف إلى غرس السعادة في قلوب الناس بتأمين احتياجاتهم وتوفير متطلباتهم المعيشية وإعانتهم على تجاوز الظروف الصعبة التي تحيط بهم وتويز آفاقهم الفكرية، وتيسير سبل الحياة الكريمة لهم وكل ما يسهم في تحقيق الأمن الاجتماعي والمعيشي لهم" (٢) .

"ويشارك الوقف في تخفيف العبء المالي الملقى على عاتق الدولة في الإنفاق العام على التكافل الاجتماعي؛ بكفالة الأيتام والأرامل ومساعدة الفقراء والمحتاجين والإنفاق على مشروعات البنية الأساسية الاجتماعية؛ كمشروعات قطاعي التعليم والصحة ومحاربة الفقر وغيرها وكذا مشروعات البنية الأساسية الاقتصادية من مرافق وأشغال عامة" (٣) .

(١) سبق تخريجه ص ٨.

(٢) انظر: مجلة الأمن والحياة - ص ٣٠-٣١ - العدد (٢١٥) السنة التاسعة عشر - ربيع الآخر ١٤٢١هـ - أغسطس ٢٠٠٠م.

(٣) الاقتصاد الإسلامي - محمد عبد المنعم عفر - ص ١٤٠-١٤١ - ط ١ - ١٤٠٥هـ - دار البيان العربي جده.
وانظر: الوقف كمصدر اقتصادي لتنمية المجتمعات الإسلامية - سليمان بن صالح الطفيل ص ٤٥-٤٦ - من بحوث ندوة مكانة الوقف وأثره في الدعوة والتنمية - ١٤٢٠هـ - مكة المكرمة.

هذا فضلاً عن إسهام الوقف في الإحسان إلى الفقراء وتوفير احتياجاتهم والعمل على تفعيل وظيفة كل فرد من أفراد المجتمع المسلم من خلال استثمار الطاقات البشرية الموجودة في المشاريع الوقفية المتنوعة.

ويحسن بنا في هذا المجال أن نتحدث بإيجاز وتركيز عن أثر الوقف في تحسين مستوى المعيشة في المجتمع الإسلامي وذلك من خلال المحاور التي سيتم تناولها:



الفرع الأول

أثر الوقف في رعاية الفئات الاجتماعية

أسهم الوقف إسهاماً عظيماً في خدمة فئات المجتمع الإسلامي من الفقراء والمساكين والعجزة والمعوزين؛ حيث قدمت لهم المعونات والمساعدات من خلال ما كان يوفره الوقف من أموال وموارد يتم الصرف من خلالها.

"لقد استطاع الوقف - على مر العصور - أن يحفظ الهوية المتميزة للمجتمع الإسلامي فأمسك عليه كيانه من الداخل، بما يحققه من تكافل اجتماعي وأمسك عليه كيانه من الخارج في مواجهة غارات العدوان والدمار.

ومما لا ريب فيه أن الوقف كان له أثره المتميز في تغطية جانب كبير من جوانب المتطلبات الاجتماعية وفي سد الثغرات الاقتصادية لفئات عديدة من أفراد المجتمع مثل الفقراء والمساكين وأبناء السبيل.

فالوقف على المحرومين من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ينتزع من نفوسهم الحقد والحسد ويبعث في قلوبهم المودة ويدفع سواعدهم إلى المشاركة في بناء المجتمع الإسلامي الذي لم يرضن عليهم بالرعاية بلا طلب أو استجداء، وإنما يقدم لهم عوائد الأموال الموقوفة عليهم لتحقيق الحياة الكريمة لهم.

ومن هنا تبرز أهمية الوقف الخيري الذي يداوي ويواسي ويعاون ويدافع عن قيم المجتمع ويحمي بنيانه الاجتماعي من جميع ما يهدده من خلال الاهتمام بحاجات الفرد والأسرة، ولا ريب أن الفقراء والمساكين تنحصر حاجاتهم الأساسية في المأكل والملبس والمسكن والتعليم وغير ذلك من الحاجات التي تتراوح أهميتها من مجتمع لآخر، لذا كان اهتمام أهل الخير من المسلمين بوقف جزء من ثرواتهم للمشاركة في توفير احتياجات الفقراء والمساكين، وقد قام كثير من الواقفين بتخصيص بعض الأعيان وحبسها للإلتفاق من عوائدها لإعانة الفقراء والمساكين على تأدية العبادات المفروضة كالصيام والحج وذلك بإعداد موائد الإفطار والسحور، كما أن بعض

الواقفين خصص بعض الأعيان لرأبجي تأدية الحج من الفقراء والمساكين، كما خصصت بعض الأوقاف لمساعدة الشباب والفتيات الفقراء على الزواج؛ وذلك بمنحهم المهور اللازمة والإسهام في تزويجهم وإمدادهم بالأثاث والثياب والحلي وما يحتاج إليه من ضروريات الحياة" (١).

إن هذا الاهتمام الذي حرص المحسنون من المسلمين عليه كان له الأثر الطيب في نفوس المحتاجين من المسلمين؛ لأنه مسح آلامهم وساعد على نزع الحقد من نفوسهم.

إن الوقف رفع من مكانة الفقير وقام بتقوية الضعيف وإعانة العاجز وحفظ حياة المعدم، مما أدى في النهاية إلى رفع المستوى المعيشي لهذه الفئات من الفقراء والمساكين من خلال الوقف لعدد من الخدمات التي تؤدي لهم، ومن الفئات الاجتماعية التي نعمت برعاية الوقف في المجتمع الإسلامي فئة الأيتام واللقطاء التي سأحدث عنها بإيجاز وذلك على النحو الآتي:-

١- الأيتام واللقطاء:

تلك الفئة التي هي بحاجة ماسة إلى الرحمة والشفقة والعطف وتحتاج إلى من يتعهد بها بالرعاية؛ لأن مثل هذه الفئة فقدت جانباً كبيراً من الحنان والرعاية التي يجدها الأولاد من آبائهم وأمهاتهم، لذا كانت رعاية الوقف لتلك الفئة الاجتماعية على جانب كبير من الأهمية، خاصة بعد أن رغب الإسلام في ذلك، قال رسول الله ﷺ: (أنا وكافل اليتيم هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً) (٢).

لذا تنافس المحسنون من المسلمين على رعاية اليتامى واللقطاء وخصصوا لهم دور الرعاية التي تقوم على شؤونهم وتوفير لهم ما يحتاجونه من طعام وشراب وكساء وتعليم وتأديب.

"ولم تقتصر رعاية الأيتام من خلال الأوقاف على تعليمهم وتوفير المأكل والكسوة والمساعدات المادية لهم فقط بل حرص الواقفون على توفير الأدوات التعليمية مثل الأقلام والمداد والألواح.

(١) انظر: الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع- د. محمد بن أحمد الصالح- ص ١٩٣-١٩٥.

- الوقف والتنمسية البشرية- د. إسماعيل عبد الرحيم شلبي- ص ١٢-١٦- ط ١٤١٩ هـ- من بحوث ندوة إحياء دور الوقف في الدول الإسلامية - بور سعيد- مصر.

(٢) صحيح البخاري- كتاب الطلاق- باب اللعان- رقم الحديث (٤٩٩٨).

كما حرص الواقفون على تحديد كل ما يتعلق بتعلم الأيتام ورعايتهم في هذه المكاتب وبتفصيل دقيق، ومن ذلك تحديد المناهج، وطرق التدريس والتأديب والتربية، ولقد بلغ حرص الواقفين على العناية بالأيتام أن اشترطوا مواصفات محددة فيمن يتولى تعليمهم وتربيتهم، ومن ذلك أن يكون المؤدب من أهل الخير والدين والأمانة والعفة، حافظاً لكتاب الله العزيز.

كما اعتنى الواقفون بمواعيد الدراسة وأيامها وأوقاتها، وتحديد ما يتم تدريسه في كل فترة ومرحلة عمرية، وجعل أياماً يرتاح فيها الأيتام من كل أسبوع، ولم تتوقف الرعاية الشاملة لهم حتى عند غيابهم عن المكاتب، بل امتدت الرعاية حتى بعد انتهائهم من المكتب ببلوغهم البلوغ الشرعي، أو الانتهاء من حفظ القرآن الكريم حيث يقام لليتم احتفال كبير يسمى (الأصرفة) حيث يصرف له مبلغ من المال ليستعين به على معيشته بعد مغادرة المكتب.

كما يصرف لمؤدبه مبلغ إضافي على مرتبه مكافأة له على جهده مع اليتيم الذي نخرج من المكتب^(١).

٢- رعاية العجزة والغرباء والعميان والمعوقين:-

توجد فئات تحتاج إلى مزيد من الرعاية والعناية، لأنهم من ذوي الاحتياجات الخاصة التي تتطلب مساعد الآخرين^(٢) وتعتبر تلك الفئة الاجتماعية من أشد الفئات حاجة إلى الرعاية والعناية نظراً لظروفهم الخاصة، ومن ثم فقد كان يبذل لهم - مجاناً - ما يحتاجون إليه من سكن وغذاء ولباس وخدمة وتعليم، بل وقفت أموال لإمداد المقعدين والعميان بمن يقودهم ويخدمهم^(٣).

ومن النماذج المعاصرة التي تستحق الإبراز والإشادة "مركز صالح بن عبد العزيز الراجحي للتأهيل الشامل والذي اعتمد مجلس أمناء إدارة أوقاف صالح بن عبد العزيز الراجحي مبلغ

(١) الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (٦٤٨-٩٢٣هـ) دراسة تاريخية وثائقية - محمد محمد أمين - ص ٢٧٥.

- انظر: دور الوقف في بناء الحياة الاجتماعية ونماذجها - د. عبد الله بن ناصر السدحان ص ٢٢٦-٢٢٧-٢٢٨.

ضمن بحوث مؤتمر الأوقاف الأول في المملكة العربية السعودية - ١٤٢٢هـ - مكة المكرمة.

(٢) انظر: من روائع حضارتنا - د. مصطفى السباعي ص ١٢٦.

الأوقاف والحياة والاجتماعية في مصر - محمد أمين ص ٢٠٦ - مجلة الخفجي - ١٩ مجلة شهرية تصدرها شركة الزيت

العربية السعودية المحدودة - السنة الثالثة - عدد (٢٦) رقم ٣ ربيع الآخر ١٤١٧هـ - سبتمبر ١٩٩٧م.

(١٠,٠٠٠,٠٠٠) عشرة ملايين ريال لإنشائه وذلك لتأهيل المعوقين في محافظة الخرج^(١).

ومشروع واحدة الأعمال الخيري الذي تقيمه جمعية الأطفال المعوقين بحي السفارات بالرياض وتقدر تكلفته إنشائه بـ (٧٠) مليون ريال. فعن أهمية المشروع: يقول الأمير سلطان ابن سلمان بن عبد العزيز رئيس مجلس إدارة الجمعية "إن واحدة الأعمال أول وقف خيري تقيمه جمعية الأطفال المعوقين في الرياض ضمن الخطة التي انتهجتها لإقامة أوقاف خيرية تسعى إلى استثمارها لتوفير مصادر تمويل دائمة وثابتة تسهم في دعم المتطلبات التشغيلية لمراكزها والتي تقدم خدماتها المجانية الخيرية للأطفال المعاقين والتي تصل موازنتها التشغيلية إلى ٤٠ مليون ريال سنوياً^(٢).

"لقد أدت الأوقاف وظيفه مهمة في تحقيق الرعاية الاجتماعية الشاملة للغرباء والعجزة بشكل عام؛ فما من مدرسة ينشئها الواقفون، إلا ويوضع بجوارها بيت خاص للطلاب المغتربين ويجرى عليهم ما يحتاجونه من غذاء، مما كان سبباً لإعجاب وانبهار الكثيرين بهذا النظام الإسلامي العظيم الذي لم يتناولوه أحدث النظم العالمية؛ حيث كان الغرباء يحظون بالرعاية التي يوفرها الواقفون من مساكن ومدارس ومعاهد ومدرسين يقومون على التعليم هؤلاء الغرباء وأنواع الرعاية الأخرى.

ومن وجوه البر التي اهتم الواقفون بالصرف عليها من ريع أوقافهم: كسوة العرايا والمقلين، وستر عورات الضعفاء والعاجزين، وإرضاع الأطفال عند فقد أمهاتهم أو عجزهن عن إرضاعهم ووفاء دين المدينين، وفكك المسجونين المعسرين، وفك أسرى المسلمين العاجزين، كما كان هناك أوقاف خيرية على أسر السجناء وأولادهم، حيث يقدم لهم الغذاء والكساء وكل ما يحتاجونه لحين خروج عائلهم من السجن، وأوقفت أوقاف لتزويج الشباب وخصص وقف لتقدم ثياب العرس وجلبه إلى العروس التي لا تقدر على ذلك، وخصص وقف لرعاية النساء اللواتي لا أسر لهن أو أسرهن في بلاد بعيدة، كما خصص وقف لتقدم ما يحتاجه الفقراء في مناسباتهم.

(١) انظر: جريدة الرياض ص ٢٠ العدد (٢٩٩٥) الصادر يوم الخميس ٣٠ ذي القعدة ١٤٢٤هـ.

(٢) انظر: جريدة الرياض ص ١٦ العدد (١٢٨٩٥) الصادر يوم الثلاثاء ١٨ شعبان ١٤٢٤هـ.

ولعل أطرف ما يرد هنا ما أوقفه صلاح الدين الأيوبي -يرحمه الله- حينما جعل ما يسمى "وقف الميزاب" حيث جعل في أحد أبواب قلعة دمشق ميزاباً يسيل منه الحليب وميزاباً يسيل منه الماء المذاب فيه السكر، تأتي إليه الأمهات الفقيرات يومين في كل أسبوع ليأخذن لأطفالهن وأولادهن ما يحتاجونه من الحليب والسكر" (١).

"وقد اختصت التكايا-في معظم الأحوال- برعاية من لا عائل لهم والذين لا يقدرّون على الكسب من العجزة وكبار السن والأرامل من النساء اللاتي لا يستطعن ضرباً في الأرض إلى جانب الغرباء والمسافرين الذين لا يجدون لهم مأوى في البلاد التي يمرون بها ومن أشهر التكايا تكيّتا مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتان أنشأهما محمد علي، وأوقف عليهما قريتين كاملتين. بمصر، بلغت مساحتهما (٢٨٧٧) فداناً ليصرف ريعها على هاتين التكيّتين لتسهيل فريضة الحج على حجاج بيت الله الحرام" (٢).



(١) انظر: من روائع حضارتنا-د. مصطفى السباعي- ص ١٨١ وما بعدها.
وانظر: أثر الوقف في تنمية المجتمع- د. نعمت عبد اللطيف مشهور- ص ٩٢.
(٢) انظر: الوقف في الشريعة الإسلامية وأثره في تنمية المجتمع- د. محمد بن أحمد الصالح- ص ١٩٦-١٩٧.

الفرع الثاني

أثر الوقف في الحفاظ على هوية المجتمع المسلم

إننا عندما ننظر إلى حجم الرعاية التي كان يوليها الواقفون لفئات المجتمع المسلم ندرك استشعار هذا المجتمع للقيم والمبادئ الإسلامية التي تجعل منه مجتمعاً متماسكاً قوي البنیان يتعاون على البر والتقوى قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدُّوْنَ ... ﴾^(١) لأن المجتمع المسلم مجتمع متماسك ومترابط تسوده الرحمة الشفقة.

"لقد استطاع الوقف على مر العصور أن يحفظ هوية المجتمع المسلم ويحقق خيرية الأمة الإسلامية، ففي أحلك الفترات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية استطاع نظام الوقف أن يحافظ على مقومات ومكونات الأمة الإسلامية وحافظ على الكثير من الوظائف مستقلة لا ترتبط أو تخضع لأي سلطان غير سلطان الشريعة فضلاً عما حققه من استمرار كثير من القيم الإسلامية في الواقع العملي.

واستطاعت مؤسسة الوقف أن تكون المؤسسة الأم التي حفظت على أمتنا حضارتها وهويتها الإسلامية بما وفرته من مصدر تمويلي عظيم ساهم في ضمان قيام واستمرار وفعالية كل المؤسسات التي رسمت معالم الحضارة الإسلامية من خلال تحقيق المقاصد الشرعية والقيم الإسلامية"^(٢).

حقاً لقد كان للوقف أثره العظيم والرائع في الحفاظ على هوية المجتمع المسلم بصفاته التي تحدثت عنها آنفاً وعبر الفصل الأول من هذه الرسالة- أثر الوقف في إعداد الداعي إلى الله تعالى - كل ذلك يؤكد على حيوية نظام الوقف في دعم مسيرة الأمة الإسلامية والدعوة إلى الله، ومما يؤكد على أهمية الوقف في حياة الأمة، ودوره في النهوض بالدعوة إلى الله تعالى أن الاستعمار الأجنبي عندما اجتاحت العالم الإسلامي في الحقبة الاستعمارية وفي ظل الظروف الحالية عمد إلى محاربة نظام الوقف سعياً لتجفيف منابع الدعوة إلى الله تعالى وضرب المؤسسات الدعوية والتضييق عليها، ولا شك أن الوقف يعمل على دعم تلك المؤسسات لتؤدي وظيفتها

(١) سورة المائدة جزء من الآية ٢.

(٢) انظر: أثر الوقف في تنمية المجتمع - د. نعمت عبد اللطيف مشهور - ص ٧١-٧٢.

في المجتمع، ولكن الاحتلال الأجنبي يعمل على ضرب الاقتصاد الإسلامي الذي يدعم المشاريع التنموية في المجتمعات الإسلامية ويوفر احتياجات فئات المجتمع المسلم من طلاب العلم والفقراء والمساكين والغرباء والعجزة والأيتام وغيرهم.

